



مفهوم التقريب في التراث البلاغي

The concept of (Taqrib) approximation in the Linguist Heritage.
Research topic (theme)

حسن إيهاب محمد أحمد*

قسم اللغة العربية وآدابها-كلية العلوم والآداب بعنيزة- جامعة القصيم -المملكة
العربية السعودية im.hassan@qu.edu.sa

تاريخ النشر:
2022-06-01

تاريخ القبول:
2021-08-20

تاريخ الإرسال:
2021-06-14

ملخص: موضوع البحث: مفهوم التقريب: كيف ظهر مع المدرسة الكوفية وكيف تطور في المباحث اللغوية. أهداف البحث: تتبع فكرة التقريب في نشأتها وتطورها ومآلاتها التي صارت إليها، وذلك بهدف إثبات فاعلية مفهوم التقريب في كل أشكال التواصل الذي يتم عبر استعمال اللغة. أهم النتائج: هناك فرق جوهري بين فكرة التقريب ومصطلح التقريب - زوال المصطلح عن الساحة الفكرية أو اللغوية لا يعني انزواء الفكرة، فقد اختفى مصطلح التقريب ليحل محله مصطلحان بديلان هما: حكاية الحال والاستحضار، مما يعني استمرار الفكرة ولكن في واجهة اصطلاحية جديدة - .التقريب مبدأ أسلوبى لغوي قد يصاب الناظر فيه بالحيرة: إلى أي حقل علمي يضاف؟ والنتيجة التي خرج بها هذا البحث أنه يندرج تحت حقل البلاغة العربية

كلمات مفتاحية: التقريب؛ الزمن في اللغة العربية؛ الاستحضار؛ حكاية الحال؛ الالتفات.

Abstract: The concept of (Taqrib) approximation in the Linguist Heritage. Research topic (theme): The concept of approximation: How did it appear in the Kufic school And how did it evolve in the Linguist Subdivisions. research aims: Trace an idea of (Taqrib) approximation in its inception and evolution to prove the effectiveness of the concept of approximation in all the styles of language communication. The Method: inductive Historical Method. The most important results: -There is a fundamental difference between the Terminology of approximation and the idea of approximation. - The Terminology disappearance does not mean the idea disappearance, because the

* المؤلف المرسل

Terminology of approximation has Disappeared, but there are two Terminology terminology has Appeared in its position: The scene imitation, and Evoke. That means the idea is still there but in an other Intellectual interface. - The approximation is a linguist stylistic principle, and when you look at it you may Feel puzzled: to which Scientific field you can add it, but according to this research it belongs to Arabic rhetoric.

Keywords: Approximation; Time in the Arabic language; Scene imitation, Evoke; Turning around.

1-المقدمة: ظهر مصطلح التقريب في المدرسة النحوية الكوفية، ولم يلبث أن اختفى مع بدايات القرن الرابع، ولكن تراجع المصطلح في دالّه لم يَعْنِ اختفاء فكرة التقريب فإن نَقَبَتْ في المرجعيات الفكرية اللغوية وجدت له شبيهين هما حكاية الحال والاستحضار، فعَلَّتُهُمَا الأوساط اللغوية العلمية بشيء من التدرج بداية من القرن الرابع. يرمي هذا البحث لهدفين:

الهدف الأول: شرح فكرة التقريب في دلالتها ومقاصدها الخطابية، عبر تتبع أوليتها واستظهار وجودها في حَقْلَي النحو والبلاغة، ثم في حقل التفسير بصورة تطبيقية سارت موازية للمسار النظري.

الهدف الثاني: النظر في مآلات الفكرة وتقلباتها التاريخية في جملة أشكال الوجود العلمي لها كامنًا وراء دوال المصطلحات المنضوية تحت العلوم الثلاثة: (النحو، والبلاغة، والتفسير).

لم يحظ مصطلح التقريب قديماً ولا حديثاً إلا بإشارات تنبّه إليه توزعت بين دراسات القدماء والمحدثين مع ذكره عَرَضاً ضمن مباحث نحوية برز فيها باعتبارات أسلوبية، أو ضمن النظر في مصطلحات المدرسة الكوفية، فضلاً عن دراسات قليلة نسبياً أفردته بالنظر على رأسها بحث الدكتور البعيمي "المنسوب على التقريب" بمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 107، (1418/1419هـ). ودراسة أخرى للدكتور توفيق قريرة بعنوان: من مفاهيم النحو العربي المنسية "التقريب" موقعه في

النظرية النحوية وما يطرحه من قضايا دلالية. وقد تناول صاحبه مفهوم التقريب من وجهة نظر لسانية فكرية، وهو بحث لا يقتصر على وصف الظاهرة بل تراه يتجه نحو تحليلها.

أما هذا البحث فهو يميل إلى كسر الجُدُر بين علمي النحو والبلاغة، ولهذا المنطلق سند كبير في بحث الدكتور قريرة الذي يربط المصطلح بالجوانب الإدراكية التي تؤسس لها البلاغة بمرجعية لغوية مقصدية. فقد بدأ بحثي هذا من حيث وقفت الجهود الكوفية في محاولة للنظر في الفكرة والمفهوم الكائنين داخل المصطلح، وفي محاولة للتقريب عن أسباب نسيان المصطلح ومكافحة الأوساط العلمية العربية لذلك النسيان.

تنقيد الحدود العلمية لهذا البحث بأسوار العلوم الدارسة للنص اللغوي العربي، فالمقاصد الخطابية للنصوص اللغوية كائنة قائمة في التفاصيل الأسلوبية لعلوم البلاغة الثلاثة، وقد تتقاطع مع النحو في بعض منحنيات مسارها العلمي، ومن ثم فالنحو يتدخل باعتبار البعد التركيبي الذي يُجَلِّي مقاصد الكلام المتحركة في استخدامات اللغة، ولكن هذا البحث بلاغيّ الجذور والفروع والأهواء فإن اقترب من النحو فمن أجل البحث عن ضوابط تركيبية تدخل ضمن مفهوم النظم.

أما الحدود الموضوعية للبحث فلا تخرج عن ضبط مفهوم التقريب المتجسد في فكرة التقريب، إن طبيعة هذا البحث تفرض محاولة تتبع التغيرات التي أصابت مفهوم التقريب وحولت مساره من الخصوصية داخل نطاق النحو الكوفي إلى العمومية العلمية الشاملة لكل ما يخص النصوص العربية. فتتبعُ المسار التاريخي للمصطلح إلى حين خفائه، ثم نظرت في المظان التي قد تحتوي أشباهاً له منقباً عنها في التفسير وكتب النحو والبلاغة. وتأسيساً على تلك المنطلقات فقد تحكمت في منهج هذا البحث فكرتان هما: المسار والمآل.

المبحث الأول: جذور مصطلح التقريب: وهو مبحث أعمد فيه إلى تحديد موقع فكرة التقريب من المباحث اللغوية العربية في محاولة للتعرف على صور وجودها وما دلَّ على أولية ظهورها، ومن اعتمدها وأسس لها من أهل علوم اللسان العربي.

الأصل اللغوي للقرب يدل على جانب المسافة، فإذا قُرب الشيء فقد دنا، وهو ضد البعد⁽¹⁾. والتقريب: "التفعل": مصدر "فَعَّلَ"⁽²⁾ المستعملة للتعدية⁽³⁾. والتعدية هنا عبارة عن تعامل لغوي مع الشيء البعيد فتُصَيَّرُ اللغة قريباً حين تخرجه عبر التصريف من اللزوم إلى التعدي. وتلك خلاصة الأصل اللغوي للفعل "قَرَّبَ" بالاعتبارين المعجمي والصرفي.

وبمحاولة الجرد التاريخي لظهور مصطلح التقريب نعر عليه في المجالين النحوي والبلاغي، ووراءه فكرة أسلوبية الاتجاه، وفيما يلي محاولة للنظر فيه في المجالين كل على حدة:

المطلب الأول: التقريب في المجال البلاغي: تقوم البلاغة على فكرة التبليغ أي أن يبلِّغ المتكلم المخاطب ما يريد إفهامه إياه وإقناعه به، لذا فالمتكلم بحاجة إلى اختصار المسافة بينه وبين المخاطب من جهة، وبين المخاطب وموضوع الخطاب من جهة أخرى، وبهذا المنطلق يغدو التبليغ تقريباً، قال "الجاحظ":

"قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس...مستورة خفية، وبعيدة وحشية...وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تَقَرِّبُها من الفهم، وتَجَلِّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً"⁽⁴⁾

فأفكار الناس بعيدة يقرِّبها التعبير عنها بالألفاظ، وهذا أول أشكال التقريب، أي تقريب مطلق الإفهام قبل التفاضل بين مراتبه البلاغية، فهو مطلق التواصل اللغوي السابق لمرحلة الإبداع اللغوي، فأحد تعريفات البلاغة أنها "ما فهمه العامي كفهم

الخاصي... وقرب على المخاطب به فهمه، لوضوحه وتقريبه ما بعد وكثر من المعاني وسهل عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه⁽⁵⁾

فالتقريب هنا عام لا يناله مخاطب دون آخر، وهذا ما أشار إليه تعريف آخر للبلاغة نقله "أبو هلال":

"البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب، والتقرب من المعنى البعيد"⁽⁶⁾
أما مرحلة التفاضل بين قول وقول فيشرحها ما نقله "الجاحظ" عن "المفضل الضبي" في تعريفه للإيجاز بأنه "حذف الفضول، وتقريب البعيد"⁽⁷⁾

يتعلق الأمر هنا بالمقدار المستخدم من الألفاظ، فالمفهم بقليل الألفاظ ليس كالمفهم بكثيرها، ويتعلق أيضاً بصعوبة المعنى المراد تبليغه ويدل على ذلك أيضاً بأن أبلغ الناس "من قرب الأمر البعيد المتناول، والصعب الدرك بالألفاظ اليسيرة"⁽⁸⁾

لكن وراء الإفهام مرحلة تالية هي الإقناع الذي يتجلى في تعريف "العتابي" للبلاغة بأنها "إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق"⁽⁹⁾
وتصوير الباطل حقاً لا بد أن يتم عبر الكذب الذي هو مخالف "لصورة العقل الناظم للحقائق، المذهب للأعراض، المقرب للبعيد، المحضر للقريب"⁽¹⁰⁾

تدور هذه الأقوال حول التقريب باعتباره مرادفاً للإفهام، فإذا حققه المتكلم انتقل إلى مرحلة الإقناع التي قد تسقط فيها القيم فتبرر الغاية الوسيلة تبريراً مقصدياً، لكن هناك تبريراً آخر يتجسد في الأبعاد الفنية في مفهوم الشعر، قال "الخليل بن أحمد":
"الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده... فيقربون البعيد ويبعدون القريب ويحتج بهم ولا يحتج عليهم."⁽¹¹⁾

إنه مفهوم الخيال يحرر الشعراء من قيود العقل وسلطة المنطق فيختار الشاعر المسافة بين مخاطبه وموضوع خطابه، فيقرب ما يتحدث عنه ممن يتحدث إليه طارحاً كل شيء في سبيل هذا التقريب حتى الأخلاق.

من مجمل الحديث عن التقريب في الحقل البلاغي نخرج بصورة ترمز لمسافة مفترضة بين المخاطب وما يريد المتكلم تبليغه إياه، والمتكلم البليغ من يستطيع طيّ تلك المسافة المفترضة فيقرب بين المخاطب والفكرة التي يستهدف تبليغه إياها، وهذا ما يؤكد الأصل اللغوي للبلاغة، فهي "من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري... فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنتهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه" (12)

وهنا تكمن الصلة بين البلاغة والتقريب، في ذلك الإنهاء الذي يجمع بين المخاطب والحدث عبر اختصار البعد العقلي بين الحدث وإدراك المخاطب لتفصيله الذي تحمله عبارات المتكلم.

المطلب الثاني: التقريب في المجال النحوي: برز مصطلح التقريب باعتباره مصطلحاً كوفياً، ويبدو أنه لم يكن مصطلحاً بقدر كونه فكرة بدلالة عثوري عليه في مباحث النحو الكوفي في موضعين لكلٍّ منهما دلالة تختلف عن الأخرى:

الدلالة الأولى: يظهر فيها المصطلح دالاً على إعمال اسم الإشارة في المبتدأ والخبر عمل "كان" وأخواتها، قال "أبو حيان الأندلسي":

وذهب الكوفيون إلى أن "هذا" و"هذه" إذا أريد بهما التقريب كانا من أخوات "كان" في احتياجهما إلى اسم مرفوع وخبر منصوب، وذلك نحو: كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قادماً، وكيف أخاف البرد وهذه الشمس طالعةً، وكذلك كل ما كان فيه الاسم الواقع بعد أسماء الإشارة لا ثاني له في الوجود، لأن المعنى إنما هو على الإخبار عن الخليفة بالقدوم، وعن الشمس بالطلوع، وأتي باسم الإشارة تقريباً للقدوم والطلوع... وما ذهبوا إليه من أن المعنى على الإخبار عن المرفوع بالمنصوب صحيح، إلا أن الإعراب على غير ما ذكره، بل المرفوع بعد اسم الإشارة خبر، والمنصوب حال" (13)

فأبو حيان يميل إلى الإعراب البصري، ورغم ذلك فهو يناقش منطلق فكرة التقريب حين يشير إلى أن الشيء المقرب بعيد على الحقيقة، وما قرّبه إلا المتكلم

بغرض خطابي، يدلّك على ذلك أن الإشارة ليست لحاضر، فهذا يؤكّد أن التقريب مصطلح دال على استحضار مدلول بعيد. فاسم الإشارة "هذا" يطوي داخله بعداً مكانياً، وهو في الوقت نفسه يدل على الوقت الحاضر كما أشار لذلك السيرافي في شرح كتاب سيبويه. (14)

ومن جهة أخرى فقد انتبه الكوفيون للبعد الدلالي للزمن في كان وأخواتها التي هي "بمنزلة اسم من أسماء الزمان، يؤتى به مع الجملة للدلالة على زمن وجود ذلك الخبر" (15) فأدرجوا اسم الإشارة "هذا" ضمن أخوات كان باعتبار ما يمثله من آنية الزمن، فهو يمثل ما يمثله دالاً على ما دلّل عليه وعاملاً عملهن، وهاهنا يقتضي الأمر وقفة: فكان وأخواتها لا يُحلّن على أبعاد مكانية بل هن ذوات أبعاد زمنية، واسم الإشارة "هذا" يحمل البعد المكاني.

فكانهم قد أرادوا توسيع مفهوم المسافة المنضوي تحت البعد المكاني لاسم الإشارة ليضم مسافة مجازية في بعد زمني، وأراهم قد وُفّقوا في هذه النظرة، فاسم الإشارة "هذا" يحل محل "كان" إذ يؤدي دوراً مضاداً لدورها فتسمح له تلك الضدية بأداء عملها بجامع المسافة المتحكم في عمل كل منهما، حيث نظروا في كان وأخواتها فوجدوا ساحتهم خالية من الدلالة على الآنية الزمنية، فهي تتجه نحو التحول بين الماضي والحاضر: (كان، صار، أصبح، أضحى، أمسى، بات)، أو تتجه نحو الاستمرارية البادئة بالماضي لتتجه نحو الحاضر: (مازال، ما برح، ما فتى، ما انفك)، لكن كان ورفيقاتها لا يعبرن عن الآن الخالص للحاضر، فوجدوا اسم الإشارة "هذا" قادراً على سد ذلك النقص، ومضيفاً عنصر المسافة إلى تلك الآنية ليدل بدقة على ازدواجية القرب الزمني والمكاني: الآن هنا، فنظروا في جامع لهما فوجدوه يتجسد في مفهوم التقريب. ووجد الكوفيون العون الإعرابي في توحيد الحكم برفع الاسم الأول بعد "هذا"، ونصب الاسم الثاني.

أما المدلول المقصدي لفكرة التقريب فيكون في كون المشار إليه باسم الإشارة شيئاً بعيداً فتقريبه اللغة من المخاطب بالإشارة إليه رغم بعده، فتتضح الصلة بذلك بين اسم التقريب ومسماه الأسلوبى، فهو يعني محاولة المتكلم استحضار شيء بعيد فكأنه مشار إليه هاهنا "بتخييل شعري أو إقناع خطابي" (16) كما يقول القرطاجني الذي يقول أيضاً تحت عنوان: في الإبانة عن طرق اجتلاب المعاني وكيفيات التثامها وبناء بعضها على بعض:

"فإن كان الارتياح لأمر شأنه أن يسر محضره إلا أنه يكون بعيداً من المتكلم، من جهة زمان ماضٍ أو مستقبلٍ أو مكانٍ أو إمكانٍ، حرَّك ذلك إلى الاستراحة لذكره والتشوف إليه." (17)

إنها إشارة واضحة لمفهوم التقريب، فهو يتحدث عن اجتلاب المعاني، فالبعيد الذي يُسرُّ بذكره المخاطب يقربه المتكلم ليسعد هذا المخاطب فيكون بذلك قد اجتلب المعاني التي يؤثر بها في المتلقي.

ليس هذا فحسب، بل تجد الدكتور قريرة يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيرى "أن مفهوم التقريب كان من المفاهيم القليلة التي يتقاطع فيها المشغل الإعرابي بالمشغل الإدراكي، ولنقل بلغة المعاصرين المشغل العرفاني" (18)

فالشار إليه مقرب من الفكر في عمق أبعد من التخيل، إنه مفهوم الإدراك ذي الجذور الفكرية والنفسية المؤثرة في قناعات المخاطب بمضمون الخطاب.

ولكن القاعدة الكوفية لم يكتب لها الذبوع ولا القبول لعدة أسباب، منها:

- اضطراب الآراء الضابطة لقاعدة التقريب باعتبارها قاعدة نحوية، وهو اضطراب نلاحظه في الإعراب فالفراء يعرب الاسم الثاني في شواهد التقريب خبراً، بينما يتردد ثعلب بين إعرابه خبراً وإعرابه حالاً. (19) ونلاحظه أيضاً في شرط كون اسم "هذا" لا ثاني له، و"يظهر أنَّ الكوفيين لم يلتزموا بهذا الشرط" (20)

- لم يوضح الكوفيون "سبب اختيارهم لفظ التقريب"⁽²¹⁾، وهذا عامل منهجي محفز لتهميش المبدأ غير الواضح الذي لم يبين صاحبه منطلق تبنيه.

- الإهمال الكوفي لفكرة التقريب التي لم تعد تذكر لديهم بعد ثعلب.⁽²²⁾

- ندرة ذكر المصطلح في كتابات الكوفيين وآرائهم بصورة تجعل البحث فيه أمراً عسيراً على الباحث وهذا يعكس ضعف الاهتمام بالفكرة حتى حين كانت ما تزال تحتفظ ببريقها، فما كتب عنها قليل جداً.⁽²³⁾

- الشعور الذي ساد الأوساط العلمية بغرابة مصطلح التقريب ضمن غرابة تُستشعر في مجمل المصطلحات الكوفية إذا قورنت بالمصطلحات البصرية.⁽²⁴⁾ لقد اجتهد الفراء فأفاض وفصل في معاني القرآن مقنناً لفكرة التقريب المرتبطة باسم الإشارة ومقعداً لها مدلاً على صحة مذهبه بجهد يستحق الاحترام⁽²⁵⁾ وإن اعترته المناقص المذكورة آنفاً، لكنه لم يجد رواجاً، ليسفر كل ذلك عن اختفاء المصطلح بعد التجاهل البصري والإهمال الكوفي.

يتحدث الدكتور توفيق قريرة عن تجاهل النحاة القدامى لمصطلح التقريب، فيرى أن عذرهم "قد يكمن في أن المفهوم الكوفي لا يتلاءم ومناهجهم في التعليل وقد يكمن في سياسة إقصاء الآخر الفكري، وهي سياسة مارسها النحاة في جملة من مارسها في جملة الفرق العلمية المتنافرة"⁽²⁶⁾.

لا يبدو إدخال التقريب في معترك نحوي أمراً سهلاً على النحاة الذين رفضوا فكرة التقريب رغم وجاهة الآراء المبررة لانتمائها النحوي الذي عبر عنه الكوفيون بما أتاحه لهم المنظار النحوي، وبما أتاحتهم لهم معارف زمانهم، وما أحسبهم يرمون إلا إلى التخييل، قال "حازم":

"والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله، صورة أو صور يفعل لتخييلها وتصورها"⁽²⁷⁾

ولكن الإقصاء كان نصيب المصطلح فرمي بسهم النسيان، فقد رمى الكوفيون بفكرة التقريب إلى الدلالة البلاغية السالف ذكرها، لكنهم لم يملكو تجاوز النحو فهم بالأساس نحا، ولكنَّ النظرة البصرية اللاحقة لسيبويه حورت الفكرة الكوفية عن قصدتها الرامي إلى ما وراء النحو لتحصرها في نطاق ساحة التفوق البصري، فالبصريون يحصرّون العامل النحوي في غرض التنبيه، قال "السيرافي" معرباً جملة "هذا عبد الله منطلقاً": "عبد الله مبتدأ، ومنطلق خبره، ثم اتفق لك قرب عبد الله منك وأردت أن تنبه المخاطب عليه، فأدخلت هذا للتقريب والتنبيه"⁽²⁸⁾

فهو بتأكيد قرب عبد الله ينفي تقريبه، فالإشارة إليه في حال قرب تنفي ضرورة تقريبه فيبقى التنبيه. إنه اغتيال تمتد جذوره عميقاً في أرض سيطر عليها النحو البصري. فهو قتل احتاطت له البصرة وأشياها التاريخيون بتبرير علمي سيبويه منه براء حيث لا يقوم دليل على معرفته بالمصطلح في دلالاته الكوفية⁽²⁹⁾، لاسيما إذا أخذنا برأي الدكتور شوقي ضيف الذي يرى أن الفراء هو واضع المصطلح⁽³⁰⁾.

إن فكرة التقريب فكرة كوفية ترمي إلى طي المسافة بين المتكلم ومخاطبه من جهة، والمخاطب وموضوع الخطاب من جهة أخرى، ويتم ذلك عبر مبدئين نفسي وعقلي يتبناهما مفهوم التخيل. قال الدكتور قريرة:

فالتقريب بهذا المعنى الذي رسمه الكتاب وروج له النحاة اللاحقون من المعاني التي تفيدها طائفة من أسماء الإشارة بأن تدلّ في الاسم الذي تقتزن به على أنه قريب مرجعياً من المركز الذي يصدر منه اسم الإشارة (مقام/ سياق)، فإذا أضفنا إلى المثال التالي: زيد قادم اسم الإشارة وقلنا: هذا زيد قادم، فإن الاسم "هذا" قد أفاد في الجملة وبعد الدخول عليها معنى التقريب بأن جعل زيدا المخبر عنه بالقدوم قريباً مرجعياً من المشير والمخاطب بالإشارة⁽³¹⁾

وهو شرح عميق يغني عن كثير من الكلام، فقد أفلح الكوفيون في استخدام مصطلح التقريب دالاً على محاولة من المتكلم للوصول بين المخاطب والحدث الواقع في زمنٍ ومكانٍ آخرين، فاسم الإشارة يحمل دلالة القرب المكاني والزمني لبعيد مقرب عبر تلك الإشارة، ليجعله في منزلة المرئي.

المطلب الثالث: دور المسافة (الزمن والمكان): بنى الجرجاني نظرية النظم على أساس الأبعاد التركيبية التي تمكّن اللغة من إنشاء التواصل بين مُنتجها ومخاطبها، فالنظم هو الفكرة الضابطة للعلاقات بين الألفاظ ووراء تلك العلاقات تكمن مقاصد الكلام⁽³²⁾. وتأسيساً على هذا المبدأ فإن اللغة الناقلة للحدث تؤدي مهمتين:

المهمة الأولى: وصف الواقع بدقة كأن المخاطب يراه بأَم عينه.

المهمة الثانية: التأثير في المخاطب عبر الأفكار التي يستبطنها الواقع فيحكيها المتكلم حاملاً إيّاها للمخاطب الغائب عن الحدث، وهذه الجزئية تنطبق على الأهمية الفكرية أو الاجتماعية الكامنة وراء ذكر المتكلم للحدث.

وهنا يتجسد مفهوم المسافة في أبرز صوره ليُكْمَل أماننا الصورة التي تعاملت بها اللغة مع الزمن والمكان من حيث صلتها بالمخاطب، فقد يحتاج المتكلم إلى إقناع المخاطب بفكرة بعينها فتراه يبحث عن وسيلة تربط تلك الفكرة بالواقع المرئي، قال الجرجاني: "ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلاً في تنافي الشئيين فقال: هذا وذاك هل يجتمعان، وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقال: "هل يجتمع الماء والنار؟" وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس"⁽³³⁾

هكذا تلمست البلاغة العربية طريقها في قضية القرب والبعد، فالجرجاني يشير إلى توظيف الواقع المرئي في إقناع المخاطب بفكرة ما، فالافتتاح منوط بحبوية الواقع، ومن هنا حملت العقلية القارئة فكرة البعد والقرب إلى الخطاب اللغوي. فقد فرقت مباحث

اللغة في موضوع الخطاب بين موضوع الخطاب المرئي الحاضر، وموضوع الخطاب الغائب، فتجد لدى النحاة ما سموه "الحال المشاهدة": قال ابن جني:

"ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة نحو قولك إذا رأيت قادماً "خير مقدم" أي "قدمت خير مقدم". فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب. وكذلك قولك للرجل يهوي بالسيف ليضرب به: عمراً، وللرامي للهدف إذا أرسل النزع فسمعت صوتاً "القرطاس والله": أي اضرب عمراً، وأصاب القرطاس".⁽³⁴⁾ فالحال المشاهدة هي الواقع المشاهد الذي تتراجع من أجله اللغة، وكأن بعض مكونات اللغة تعلن انسحابها لاطمئنان الواقع أمام عيني المخاطب.

ويطالعنا منطق التقريب في ارتباطه بعنصر المسافة في جانب دلالة التصغير على مفهوم القرب، قال المبرد متحدثاً عن الصلة بين التصغير والمسافة:

"فأما الأسماء المبهمة فنحو خَلْف ودون وفوق تقول خُلِيف ذاك، ودُوِين ذاك، وفُوق ذاك، لأنك أردت أن تقرب ما بينهما وتقلله. فإن قلت "هو عند زيد" لم يجز أن تصغر "عند" وذلك أنه قد يكون خلفه بكثير وبقليل. وكذلك دونه وفوقه، فإذا صغرتهما قللت المسافة بينهما، وإذا قلت "عندي" فقد بلغت إلى غاية التقريب فلا معنى للتصغير"⁽³⁵⁾

لقد نظرت العقلية القارئة لفكرة التقريب في مفهوم المسافة باعتباره العامل المحدد لقرب أو بعد المخاطب من الواقع المحكي عبر اللغة، فأدى ذلك المفهوم دوراً في وضع قواعد اللغة، فهو الذي يحدد متى يُذكر الفعل ومتى يُحذف، ويتحكم في مقدار حروف اسم الإشارة، ويتدخل في جواز التصغير ومنعه. فحين زالت الحاجة لبيان القرب بزوال المسافة زال تبيينه. إنها المسافة صفر والزمن الآتي يجسدان حضور المخاطب لحظة وقوع الحدث.

ولأداة النداء دور في قضية القرب والبعد، قال الزمخشري: "يا" حرف وضع في أصله لنداء البعيد... ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب. تنزيلاً له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً" (36)

وقال ابن مالك عن أسماء الإشارة: "وقد ينوب ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه، وذو القرب عن ذي البعد لحكاية الحال" (37)

فالمسافة قد تكون حقيقية وقد يصطنعها المتكلم ليؤكد بها أهمية محتوى خطابه مخالفاً ما يقتضيه الظاهر، ومن هنا تبدأ أهمية البحث في القرب والبعد المفتعلين. وذلك باعتبار عنصر المسافة منطلقاً متحكماً في ثبات وتغير المعطيات اللغوية عن مرجعياتها التعيدية وبإيلاء ثنائية القرب والبعد مكانة المتحكم في طبيعة الخطاب

المبحث الثاني: الإطار المنهجي لمفهوم التقريب: كما مر بنا فقد نشأت فكرة التقريب كوفية الملامح، ولم تكد تظهر حتى تلقتها العقول بالوقفة المضادة التي عطلت مسارها المنهجي فاخفتت مستعصية محاولات الإقصاء، لتظهر من جديد في ثوب آخر، فالنحاة والبلاغيون يتحدثون عن وسائل تقريب تقفز بها اللغة فوق الزمن والمكان، وعلماء الفريقين ومن ورائهم المفسرون يجمعون تلك الأدوات التقريبية تحت مصطلحين يشكلان إطاراً منهجياً لمفهوم التقريب هما "حكاية الحال" و"الاستحضار" وفيما يلي تفصيلهما تعقبه نظرة في صلتها بمفهوم التقريب.

المطلب الأول: حكاية الحال: وأول ظهور لمصطلح "حكاية الحال" فيما عثرت عليه حين ذكره الزجاج (توفي 311هـ): في إعراب قوله تعالى: "قَلَمًا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوُّعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ" [هود: ٧٤]

المعنى فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى أخذ يجادلنا في قوم لوط، وأقبل يجادلنا. ولم يذكر في الكلام أخذ وأقبل، لأن في كل كلام يخاطب به المخاطب معنى أخذ وأقبل إذا أردت حكاية الحال" (38)

ويذكره ابن السراج (توفي 316هـ):

"قأنت قد تقول: ما تأتيني إلا قلت حسناً وما تحدثني إلا صدقت فمن أين وقع الماضي بعد إلا والذي قبله مضارع؟ قيل: فالمضارع الذي قبله في معنى الماضي، لأنه حكاية الحال". (39)

أي أنّ هناك زمنين: زمناً للفعل، وزمناً آخر كأن الفعل قد تحول ليدل عليه تاركاً دلالاته الأصلية. قال ابن جني: "وأما قوله: "ولقد أمر على اللئيم يسبني" فإنما حكى فيه الحال الماضية، والحال لفظها أبداً بالمضارع" (40)

ولابن جني رأي في حكاية الحال يتخذ شكلاً مغايراً: "ألا ترى إلى قوله:

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمَتَقَاعِسُ

فلو قال حاكياً عنها: "أبعلي هذا بالرحى المتقاعس" من غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكراً لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها" علم بذلك قوة إنكارها وتعاضم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين" (41)

فكأنه يرى أن حكاية الحال تعني تفصيلاً داعماً للتصوير يهدف لمزيد من التأثير في المخاطب لينغمس لا في المشهد مجملاً بل في أدق تفاصيل المشهد المرئي التي تضاف إلى تفاصيل المقول، ويدل على ذلك معنى الحكاية: التي هي من "حاكَيْتُهُ، إذا فعلتُ مثل فعله وهيئته" (42)

فذلك حدث مضى يَقلَّد في طريقة حدوثه عبر اللغة وكأنه مشهد يعاد تمثيله. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: "قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَمُ إِذْ تَدْعُونَ" (72) [الشعراء: ٧٢] معلقاً على الفعل يَسْمَعُونَكَمُ:

"معناه: هل يسمعون دعاءكم، وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية ومعناه: استحضر والأحوال الماضية". (43)

وقال الإستراباذي: "قال الأندلسي: معنى حكاية الحال أن تقدر نفسك كأنك موجود في ذلك الزمان، أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن، ولا يريدون به أن اللفظ الذي في ذلك الزمان محكي الآن على ما تُلفَّظ به كما في قوله: دعنا من تمرتان، بل المقصود بحكاية الحال: حكاية المعاني الكائنة حينئذٍ، لا الألفاظ" (44)

أليس هذا هو التقريب؟ فاللغة تركّز في تقريبيتها على ما يفيد المخاطب، ففائدته أكبر إذا تحرر المعنى من قالب اللفظ ليصاغ بصورة تتواءم مع سياق زمن الخطاب. قال الدسوقي عن حكاية الحال:

"فهى مانعة من رعاية التناسب بين المعطوفين لما علمت من أن رعاية المعنى أوجب من رعاية اللفظ" (45)

وهذا دليل آخر على إيلاء الأهمية للخطاب لا لأصول القواعد اللغوية، وهنا تكمن أهمية التقريب وجدواه، فالمخاطب هو مركز الخطاب بشكل يقود إلى نفس النسق اللغوي المعهود حفاظاً على المعنى المراد تبليغه للمخاطب.

ولا يرتبط مصطلح حكاية الحال بجانب الزمن فقط بل تجد له ارتباطاً بالمكان أيضاً، فقد مر بنا أن اسم الإشارة ذو صلة بالمسافة، ولكن تخصيص كل اسم بمسافة بعينها تفصل بين المتكلم والمشار إليه قاعدة قد تُخرَق، قال ابن مالك:

وقد ينوب ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه، وذو القرب عن ذي البعد لحكاية الحال" (46)

ويستوقفنا هنا ذلك الاقتران بين حكاية الحال من جهة وثنائية القرب والبعد من جهة فمرجعية فكرة التقريب لا تخفى. فحكاية الحال مفهوم يلغي زمن الحدث لصالح زمن الإخبار، ممثلاً إعادة آنية للحدث الماضي، وتخيلاً لوقوع الحدث المستقبل قبل وقوعه، لتتجاوز الأزمنة منتجة تقريباً يمثلها نقل الحدث نقلاً دقيقاً متكاملاً لمحتوى الخطاب ليقرب من المخاطب.

مما تقدم من أمر مصطلح حكاية الحال يظهر لنا جلياً أنه ينطلق من هدف فكرة التقريب، فهو يمثل ضرباً من التقريب بين المخاطب والحدث الذي يريد المتكلم أن يحدثه عنه فيحكي الحال أي يقربه قريباً تمثيلاً نستوثق منه بما نقله الاستراباذي: "معنى حكاية الحال أن تقدر نفسك كأنك موجود في ذلك الزمان، أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن" (47) إنه التقريب بالمنطلق الكوفي.

المطلب الثاني: الاستحضار: هناك حالتان تمثلان صلة المخاطب بالحدث المحكي: هما حالتا الحضور والغياب، فالحضور يعني رؤية المخاطب للحدث وهذا يقرب الأمر كثيراً بين المخاطب والمتكلم، أما الغياب فهو يشير إلى خلو ذهن المخاطب من موضوع الخطاب، وهنا يأتي دور استحضار الحدث ليكون كأنه حاضر أمام المخاطب فمصطلح الاستحضار تناوله النحو كما تناولته البلاغة، وهو مصطلح يجد الرواج على يد الزمخشري الذي يقول في تفسير قوله تعالى: "فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ" [البقرة: 87]: "فإن قلت هلا قيل وفريقاً قتلتم قلت هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فطيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب ... " (48)

ونجده في صورة الفعل "يستحضر" في تفسيره لقوله تعالى "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" [فاطر: 9] "فإن قلت: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على

القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بَأْنَى قَدْ لَقِيتُ الْغَوْلَ تُهْوَى بَسْهَبَ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانَ
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهَشٍ فَحَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول⁽⁴⁹⁾ كأن الزمخشري يشير إلى جعل الحدث قريباً من المخاطب باستحضار صورة الرياح حين تذكر بالفعل المضارع رغم أن السياق يتجه نحو الفعل الماضي المتوافق مع بقية الأفعال. فنحن مع أفعال تمتزج بين المضارع والماضي، وتلك موازنة بين الأزمنة بين زمن السياق اللغوي وزمن الحدث الموصوف بلغة الحكاية، وهاهنا تكمن مهمة التقريب. كأن الزمخشري يشير إلى التقريب لكن بصورة غير مباشرة. واللافت للنظر في هذا الرأي للزمخشري هو توحيد بين حكاية الحال والاستحضار وكأنه يشير إلى توحيد مدلولهما، وهذا ما سأناقشه في المطلب التالي بحول الله.

وللاستحضار صلة بالقرب والبعد المرتبطين بأسماء الإشارة: قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى "كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15)" [ص: ١٢-١٥]

"هؤلاء: أهل مكة ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر، أو لأنهم كالحضور عند الله"⁽⁵⁰⁾ فالاستحضار عند الزمخشري يرتبط بالزمن والمكان معاً، فهو مصطلح محيط بالأفعال وبأسماء الإشارة.

وبعد الزمخشري يأتي السكاكي الذي يرى رأيه ويسير على نهجه، حيث ناقش السكاكي مصطلح الاستحضار ضمن حديثه عن "تقييد الفعل": واستلزم في مثل قولك: لو تحسن إلي لشكرت القصد بـ"تحسن" على تصوير أن إحسانه مستمر الامتناع فيما

مضى وقتاً فوقتاً على نحو قصد الاستمرار حالاً فحالاً بـ"يستَهْزئ" قصد الاستمرار في قوله عز اسمه: "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ بعد قوله" (51)

ويخلص السكاكي إلى أن المضارع يفضي إلى الاستحضار إذا جاء في سياق وصف حدث قد مضى، ويستشهد ببيني تأبط شراً ناقلاً ما قاله عنهما الزمخشري، وأخذاً عنه الرأي بجملته وتفصيله (52).

لكن معاصراً للسكاكي اقتحم الساحة دارساً ومؤثراً فيها، فمع ابن الأثير يتقدم مفهوم الاستحضار ليضم الالتفات الذي فصله السكاكي عن تغير أزمنة الأفعال (53) حيث نقل ابن الأثير تَغْيِيرَ الأزمنة من الدخول تحت مطلق الاستحضار واضعاً إياه تحت مظلة الالتفات الذي جعله على ثلاثة أقسام يظهر مصطلح الاستحضار عند حديثه عن القسم الثالث: "في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي" (54).

فهو لم يُحِدِثْ جديداً في فكرة التقريب فهي هي كما كانت مع الزمخشري، الجديد فقط في تأطيرها بإطار الاستحضار أولاً ثم بإطار الالتفات ثانياً، فهو تحويل في الشكل لا يمس المضمون، يدل ذلك على ذلك حديثه تحت مفهوم الالتفات عن نفس الآية التي فسرها الزمخشري تحت مفهوم الاستحضار، وهي قوله تعالى: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنْثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" [فاطر: 9]

لقد أكد الزمخشري أن مفهوم الاستحضار مفهوم بلاغي بامتياز، ولكنه يحصر جانبه التطبيقي - باعتبار موضوع كتابه - في البلاغة القرآنية، ليأتي بعده السكاكي مخرجاً إياه من الخصوصية القرآنية إلى العمومية الفنية اللغوية التي أكدها الزمخشري ضمناً، ويحمله ابن الأثير من إطاره العام إلى إطار الالتفات.

المطلب الثالث: توحيد المدلول: إن الفرضية الأرجح للعلاقة بين المصطلحات الثلاثة (التقريب، وحكاية الحال، والاستحضار) هي فرضية أن الأوساط اللغوية العربية قد أحست بالحاجة لفكرة التقريب فاستعاضت عنها بالمصطلحين، فإن ظهر ذلك الاحتمال على استحياء لافتقاره لدليل يؤيده فإن دليلين نظريين يثبتان توحيد مدلول المصطلحات الثلاثة:

الأول: أن التقارب بين المنطلقات المقصدية في المصطلحات الثلاثة يدفعنا لترجيح ذلك الإحساس بقيمة مفهوم التقريب ومحاولة الاستعاضة عنه ببديل منهجي.

الثاني: تدور المصطلحات الثلاثة حول نقطة موحدة ضابطة لمدلولاتها تتجلى في مفهوم المسافة الذي يجمعها جمعاً لا جدال حوله ليكون الدليل الأقوى على الاستعاضة بالمصطلحين عن مفهوم التقريب.

الثالث: ارتباط المفاهيم الثلاثة بجذر مفهومي جامع، وتتبع هذا الأصل الموحد يقتضي النظر في منهج التفكير الذي وجه المسار اللغوي للناظرين في تلك المفاهيم، وفيما يلي محاولة لإثبات الصلة بين مفهوم التقريب من جهة ومصطلحي حكاية الحال والاستحضار من جهة أخرى في عقلية أولئك الناظرين:

إن تتبع آراء أهل النحو والبلاغة والتفسير بعد الزمخشري ينبئ عن وجود نواة للفكرة في العقلية التي نظروا بها لبعض الظواهر الأسلوبية المرتبطة بـ "مسمى" التقريب، والدليل على صحة هذا الرأي انعكاس الفكرة في دالّها ومدلولها في بعض الآراء لديهم، فالمصطلح الكوفي يربط بين الزمن وإعمال اسم الإشارة عمل "كان" باعتبار أن دوره الدلالي مضاد لدورها في إثبات نسبتها للماضي بينما يستعمل اسم الإشارة للحاضر، ويرى الخثران أن الكوفيين قد "وضعوا هذا المصطلح لما كانت هذه الإشارة تكون للتقريب أي أنها تدل على تقريب المشار إليه، ودليلنا على ذلك أنهم لم يوردوا من أسماء الإشارة إلا ما كان منها للتقريب" (55)

إنها إشارة واضحة لمذلول الاستحضار، أليس الاستحضار هو المجيء بالشيء ليصبح كالمرئي للمخاطب؟، فكأن اسم الإشارة الدال على الحاضر يُحْضِر هذا الشيء المشار إليه؟، أليست الصلة جلية واضحة بين الحاضر والاستحضار؟ فمادة "حضر" تشير إلى "إيراد الشيء، ووروده ومشاهدته" (56)

فالمصطلحات الثلاثة شديدة التداخل وكلها تدور حول نقطة منهجية ضابطة لمذلولاتها هي مفهوم المسافة.

الخاتمة: يقوم مقصد التقريب في العقلية التراثية على مطلق الجمع بين المخاطب والحدث، فليس مهماً أن نعرف أنقلنا المخاطب للحدث أم نقلنا الحدث للمخاطب، وهذا يدل على إيلاء الأهمية لمبدأ التقريب لا لكيفيته.

لقد نشأ مصطلح التقريب في أحضان المذهب الكوفي باعتباره مصطلحاً يمثل فكرةً كوفية الأصل لكنه وجد معارضةً بصرية، فالبصريون يرون أن المنسوب بعد اسم الإشارة إنما هو حال.

ويبدو أن انجلاء المعركة عن انتصار بصري قد أنشأ تراجعاً عن المبدأ الكامن وراء مصطلح التقريب، فتحرك مصطلح حكاية الحال ليسد الفراغ المنهجي لهذا التراجع، وينضم إليه مصطلح الاستحضار، ليتأكد التحول من مصطلح التقريب إلى مصطلحي حكاية الحال والاستحضار مع الزمخشري، فاندثرت الفكرة الكوفية ذات الوجه النحوي وحلّت محلها فكرة ذات وجه بلاغي أكدّه الزمخشري وسار للاحقوه على هداه ليستقر الأمر على البديلين المستعاض بهما عن التقريب الكوفي.

يقوم مفهوم التقريب داخل الحقل البلاغي في بعده المقصدي على مفهوم المسافة، فالمتكلم يريد الجمع بين المخاطب وموضوع الخطاب عبر مبدأ التقريب، ونجاحه الاجتماعي أو الفني يكمن في تقريبٍ يَصِلُ لدرجة الجمع بين الطرفين في إفهام ثم إقناع. والمسافة هنا على درجتين تجسدهما دلالتان:

ففي الدلالة الأولى تبدو المسافة بين المخاطب وموضوع الخطاب أقرب بفعل بساطة المطلوب الذي هو الإفهام. أما في الدلالة الثانية فإن المسافة تزيد إذ يُطلب الإقناع إلى جانب الإفهام.

لم تَسعَ العقلية النازرة في مفهوم التقريب لإنشاء حدود دقيقة بين مدلولات المصطلحات المنضوية تحت صفة التقريب، فالمصطلحان الجامعان (حكاية الحال والاستحضار) شديداً التداخل بشكل قد يبلغ حد التطابق، ولعلهما يمثلان توحداً للمدلول مع اختلاف الدال مع شيء من الدقة في الخلفية المنهجية للتسمية في كل منهما.

وهاهنا تكمن ضرورة إثبات رئاسة مصطلح التقريب على فكرة الجمع بين المخاطب والحدث الذي بَعُدَ عنه زمنًا ومكانًا، فالتقريب مصطلح قادر على تجميع تلك الأشتات المنهجية آخذاً بمعاقدها العلمية ومهيماً على تفرقها ليحيله اجتماعاً، فهو المصطلح الجامع الذي يَجْبُرُ الاضطراب التراثري في التداول العلمي الذي لم يفرق بين المصطلحين البديلين في المسميين المدلول بالمصطلحين عليهما وفي تفاصيلهما باعتبارهما ضابطاً أسلوبياً لمجموعة من التصرفات في قواعد اللغة.

تبنى هذا البحث فكرة حلول حكاية الحال والاستحضار محل التقريب، وقد حاولتُ إثبات صحة هذا المنطلق، فالنظرة الأولية تجعلنا نجزم بافتقاد الساحة اللغوية الفكرية لمرمى مصطلح التقريب الكوفي، لكن النظرة المجملة للمنطلقات المقصدية في المفاهيم الثلاثة تُظهِرُ لنا تطابقاً كبيراً بين مبدأ التقريب من جهة والمبدأين الناشئين في الاستحضار وحكاية الحال من جهة أخرى، فضلاً عن توحيد منطلقات البلاغيين والنحاة والمفسرين حين يتحركون في الساحة التطبيقية للمصطلحات الثلاثة، والنتيجة أن فرضية الاستعاضة بالمصطلحين عن فكرة التقريب تبدو فرضية راجحة دار هذا البحث على إثباتها.

لقد انطلقت البلاغة العربية في الساحة اللغوية من هدف بلوغ غاية إفهام المخاطب وإقناعه، ومن ثم فقد تحدثت تعريفاتها عن صلة بينها وبين التقريب، وتحدثت النحاة والبلاغيون والمفسرون عن الاستحضار وحكاية الحال بصورة تنبئ عن قناعة عميقة بالفكرة البلاغية، وهذا دليل على أن فكرة التقريب ذات منحى بلاغي وإن كانت نحوية المنشأ.

لم تتأثر فكرة التقريب بغياب المصطلح الدال عليها، بل بقيت كامنة تنتظر من يخرجها، لتظهر من جديد في المجال القرآني ولكن في مبدأ لغوي الوجه حيث أشارت الدراسات في الحقلين القرآني واللغوي إلى المصطلحين: حكاية الحال والاستحضار إشارات تتبعتها فوجدتها تتراوح بين الجانبين النظري والتطبيقي، فقام هذا البحث على هدف إخراجها إلى الوجود بعد ضمور وغياب مصطلح التقريب.

التوصيات: ضرورة التعمق في تأمل البلاغة العربية بمنطلق البحث عن الأفكار لا عن المصطلحات، فالبلاغة العربية كانت وليدة مسار تراكمي اعتمده البعض وخالفه آخرون، ورب معيَّب عن ساحة هذا المسار ذي جدوى في فهم النص اللغوي العربي. ضرورة النظر في المسافة الفاصلة بين النحو والبلاغة، إذ تتجه النظرة العلمية نحو علم المعاني باعتباره الصلة الأكثر ظهوراً، لكن مفهوم التقريب يلفت أنظارنا إلى فروق منهجية أخرى تدق حتى تقلت من الأعين العلمية الناضرة، وهنا أستشهد بمقولة الدكتور قريرة:

"أن التقريب من المفاهيم التي توحى بعد التمعن في كيفية بنائها بأن النظرية النحوية يمكن أن تتجدد أركانها بتجدد زوايا النظر إلى المسائل ومناهج طرقها، ولكن الرغبة في رؤية الأشياء من منظار المؤلف هي التي تعرقل ذلك التجديد"⁽⁵⁷⁾ ولست موصياً أهل النحو فإن له رجاله الأخير به وبشعابه، بل أهل البلاغة أوصي بدخول معتزك الحد الفاصل بينها وبين النحو في سبيل النظر في المفاهيم التي

ربما أسقطتها الذاكرة العلمية النحوية، أو غفل البلاغيون عن صلتها بالبلاغة وقصرها النحاة على النحو.

بذا يكتمل بحثي المتواضع وما هو ببالغ الكمال الذي هو غاية لم يبلغها سوى كلام الله.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأنباري: أبو البركات، أسرار العربية، تحقيق: محمد بهجت البيطار، د.ط، المجمع العلمي العربي: دمشق، د.ت.
2. الأندلسي: أبو حيان، التذييل والتكميل، تحقيق حسن هندائي، ط1، دار القلم، دمشق، 1421هـ.
3. الأندلسي: ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق مفيد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ.
4. الأنصاري: جمال الدين بن هشام، مغني اللبيب، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، ط1، السلسلة التراثية، الكويت، 1421 هـ.
5. البعيمي: إبراهيم، المنصوب على التقريب، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 107، (1418/1419هـ).
6. الجاحظ: عمرو بن بحر، (255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ.
7. الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد رشيد رضا، ط1، دار الكتب العلمية: بيروت، 1409هـ.
8. ابن جني: عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، د.ط، دار الكتب المصرية: القاهرة، د.ت.

9. الجوهري: إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، ط2، دار العلم للملايين: بيروت، 1399هـ.
10. الخثران: عبد الله، مُصْطَلَحَات النحو الكوفي، ط1، دار هجر، القاهرة، 1411هـ.
11. الدسوقي: محمد عرفة، حاشية الدسوقي على شرح التفتازني لمتن التلخيص، تحقيق: محمد قطة العدوي، د.ط، دار الطباعة: القاهرة، د.ت.
12. الدويني: جمال الدين (ابن الحاجب)، الشافية في علم التصريف، تحقيق حسن أحمد العثمان، ط1، المكتبة المكية، مكة 1415هـ.
13. ديره: المختار أحمد، دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، ط1، دار قتيبة، بيروت-دمشق، 1411هـ.
14. الزمخشري: محمود، الكشّاف، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1427هـ.
15. ابن السراج: أبو بكر، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط1، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1405هـ.
16. السَّكَاكِي: أبو يعقوب يُوسُف، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية: بيروت، 1407هـ.
17. سيبويه: عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي: القاهرة، 1408هـ.
18. ابن عاشور: محمد الطاهر، (1393هـ)، التحرير والتنوير، د.ط، الدار التونسية: تونس، 1984م.
19. العسكري: أبو هلال، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد، أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1371هـ.
20. ابن فارس: أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، د. ط، دار الفكر: دم، 1399هـ.

21. القرطاجني: حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
 22. قريرة: توفيق، من مفاهيم النحو العربي المنسية: "التقريب" موقعه في النظرية النحوية وما يطرحه من قضايا دلالية، حوليات الجامعة التونسية، العدد 58 سنة 2008م.
 23. القوزي: عوض، المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ط1، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض، 1401هـ.
 24. المبرد: محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، د.ط، لجنة إحياء التراث: القاهرة، 1415هـ.
 25. أبو موسى: محمد محمد، مدخل إلى كتابي عبد القاهر، ط1، مكتبة وهبة: القاهرة، 1418هـ.
- الهوامش والإحالات:**

- (1) -الصاحح، إسماعيل بن حماد الجوهري، (198/1).
- (2) -شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش، (336/5).
- (3) -الشافعية في علم التصريف، جمال الدين الدويني (ابن الحاجب)، ص 20.
- (4) -البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، (75/1).
- (5) -التقريب لحد المنطق، ابن حزم الأندلسي، ص 189.
- (6) -الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 47.
- (7) -البيان والتبيين، الجاحظ، (97/1).
- (8) -الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 438.
- (9) -البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، (113/1).
- (10) -المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ص 293.
- (11) -منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص 144.

- (12)-الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 6.
- (13)-التنزيل والتكميل، أبو حيان الأندلسي: (167/4).
- (14)-انظر شرح كتاب سيبويه، السيرافي، (111/3).
- (15)-انظر شرح المفصل، ابن يعيش، (84/2).
- (16) -منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص18.
- (17) -منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص12.
- (18) -من مفاهيم النحو العربي المنسية: "التقريب" موقعه في النظرية النحوية وما يطرحه من قضايا دلالية، توفيق قريرة، حوليات الجامعة التونسية، ص243.
- (19) -انظر مصطلحات النحو الكوفي، عبد الله بن حمد الخثران، ص 95.
- (20)-انظر المنصوب على التقريب، إبراهيم بن سليمان البعيمي، ص 503.
- (21)-انظر مصطلحات النحو الكوفي، عبد الله بن حمد الخثران، ص 94.
- (22)-انظر المنصوب على التقريب، ص498.
- (23) -انظر المنصوب على التقريب ص497.
- (24) -انظر المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص166.
- (25) -انظر دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، المختار أحمد ديرة، ص237.
- (26) -من مفاهيم النحو العربي المنسية: "التقريب" موقعه في النظرية النحوية وما يطرحه من قضايا دلالية، توفيق قريرة، حوليات الجامعة التونسية، ص244.
- (27) -منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، ص 89.
- (28)-شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي، (406/2)
- (29)-المنصوب على التقريب، إبراهيم بن سليمان البعيمي، ص 519.
- (30) -المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص 198.
- (31) -من مفاهيم النحو العربي المنسية: "التقريب" موقعه في النظرية النحوية وما يطرحه من قضايا دلالية، توفيق قريرة، حوليات الجامعة التونسية، ص 245.
- (32) -دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 463.

- (33)-أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص106.
- (34)-الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، (1/264).
- (35) -المقتضب، محمد بن يزيد المبرد، (2/270).
- (36)-الكشاف أبو القاسم الزمخشري، (1/75)
- (37) -تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، جمال الدين بن مالك، ص 40.
- (38)-معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، (3/65).
- (39)-الأصول في النحو، ابن السراج (1/299).
- (40) -الخصائص، ابن جني (3/332).
- (41)-الخصائص، ابن جني، (1/245).
- (42)-انظر الصحاح، الجوهري (6/2317).
- (43)-الكشاف، الزمخشري (3/241).
- (44) -شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، رضي الدين الاسترأبادي، القسم الثاني/ المجلد الأول ص728.
- (45)-حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني لمتن التلخيص، الدسوقي، ص 70.
- (46) -تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك محمد بن عبد الله، ص40.
- (47) -شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، رضي الدين الاسترأبادي، القسم الثاني/ المجلد الأول ص728.
- (48)-الكشاف، الزمخشري (1/125).
- (49) -الكشاف، الزمخشري (3/456).
- (50)-الكشاف، الزمخشري (4/58).
- (51) -مفتاح العلوم، السكاكي، ص 247.
- (52) -مفتاح العلوم، السكاكي، ص 247.
- (53) -مفتاح العلوم، السكاكي، ص199.
- (54) -المثل السائر، ابن الأثير (2/183).

(55)- مصطلحات النحو الكوفي، عبد الله بن حمد الخثران، ص 94.

(56) -مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، (75/2).

(57)- من مفاهيم النحو العربي المنسية: "التقريب" موقعه في النظرية النحوية وما يطرحه من قضايا

دلالية، توفيق قريرة، حوليات الجامعة التونسية، ص243.